أثر البنيوية والتداولية في توجيه النقد الأدبي

أ/ حمدي منصور جودي
أستاذ مساعد
جامعة محمد خيضر- بسكرة

توطئة :

يعدّ النقد عملية متممة للعمل الأدبي. ذلك أن الناقد يسعى من خلال دراسة نصوص الأدب إلى إبراز القيم التي تحويها هذه النصوص. سواء تعلق الأمر بالجانب الفني الجمالي أو بالجانب الاجتماعي الأخلاقي. ويتضح هذا الهدف جليا من جملة الضوابط التي تشكل النظرية النقدية الأدبية. رغم اختلاف النقاد حول آليات تطبيق هذه الضوابط عند نقد الأعمال الأدبية. "فليس هناك منحى واحدا إذا سلكه الناقد إلى الآثار الأدبية أفضى إلى كل الحقائق المهمة حولها"1.

لهذا اتسمت المناهج النقدية التقليدية بالتناقض بين المنطلقات والإجراءات. وبخاصة المنهج التاريخي والمنهج الاجتماعي والمنهج النفسي. واقتصرت الأعمال النقدية على دراسة السياق الذي يحيط بالنص الأدبي. مع الإشارة إلى المتغيرات الاجتماعية التي ساهمت في نتاج النص الأدبي. وإلى المكونات النفسية المجسدة لشخصية الأديب المبدع2. وهذا ما جعل النظرة النقدية القديمة بعيدة عن إدراك القيمة الذاتية والجمالية الفنية للعمل الأدبي. " فهناك علوم طبيعية أو إنسانية ظلّ الأدب مُهْمَلا بالنسبة لها. إلا من دور متواضع في تغذيها بالمواد. فهي تلمس الأدب لمسا رقيقا من بعيد جدا. وتستخدمه أداة. وتفيد منه في التوثيق.

وفي نهاية المطاف تهيأ لتعرف شيئا ليس بأدب. ولا تشغلها قيمة ما هو مكتوب. وتتصرف كما لو أن العمل الفني إذا لم يستخدم لشيء آخر فلا وجود له "3.

ومع ظهور رؤى ونظريات جديدة حول مفهوم الخطاب. وجد النقاد أن عملهم وفق المناهج النقدية التقليدية. لا يتعمق في طبيعة النص الأدبي. وإنما يبرز بعض جوانبه لا غير. فتحوّل مسارهم إلى نظرة جديدة تبحث في تشكيل البنية اللغوية للنص الأدبي ذاته. على اعتبار أنه جنس من أجناس الخطاب. يعتمد بنية لغوية محددة. لها وظائف اتصالية تبليغية.

1- النقد في ظلّ المنهج البنيوي:

لقد كان لآراء ودروس العالم اللساني " دو سوسير " بالغ الأثر في تغيير الوجهة النقدية من صورتها التقليدية. إلى دراسة البنية اللغوية للنص الأدبي. فقد حدد " دي سوسير " مفهوم اللغة واعتبرها نظاما من العلامات. تتحدد فيه كل علامة بحسب علاقتها بغيرها من علامات النظام. ودعا بذلك إلى استقلال علم اللغة بوصفه موضوع دراسة في ذاته ولذاته. وميّز بين مفهومي الثنائية (اللغة. الكلام). فاللغة تخص الجماعة. أما الكلام فيرتبط بالفرد. ويتعلق بمقدرته اللغوية على أداء مقاصد محددة أثناء التبليغ. انطلاقا من لغة الجماعة التي ينتمي إليها ونشأ فيها.

وقد ظهر أثر " دي سوسير " في المناهج النقدية الحديثة. التي تحوّلت إلى دراسة تشكيل البنية اللغوية الداخلية. عند كل من: الشكلانيين الروس. وحلقة براغ. والبنيويين :

أ- الشكلانيون الروس: لقد تبنى هؤلاء مصطلح"لا آلية اللغة الأدبية" في مقابل"آلية اللغة" اليومية المعتادة. ويعني مفهوم "لا آلية اللغة" – عندهم – " فهم اللغة الأدبية على أنها إبراز لشكل الرسالة بطريقة تجعل من الدليل الأدبي ليس مجرد إشارة. وإنما هو عنصر يتطلب انتباها قائما بذاته على نحو ما في مقابل المشار إليه. وبذلك يتحوّل الدليل إلى موضوع للرسالة. وهذا يمنح شكل الرسالة الأدبية قيمة لا تمتلكها الرسائل غير الأدبية المرتبطة بالوظيفة التوصيلية أو الإشارية "4.

إن وسيلة الأدب هي اللغة. لكنها لغة خاصة لا تشبه اللغة اليومية المعتادة. وإنما هي تحوّر وانحراف عنها. يغلب على هذا الانحراف الجانب الجمالي والفني. كما تطغى عليه الوظيفة الشعرية التي تجعله خطابا أدبيا. ذي وظائف متعددة في مجال التبليغ والتواصل.

ب- حلقة براغ : ترى هذه المدرسة اللغوية أنه من الواجب النظر في البنية الوظيفية للقصائد الشعرية. كما تنظر أيضا في طبيعة الدوال والمدلولات والعلاقات التي تربط بعضها ببعض. مع " دراسة هذه العلاقات لذاتها وليس بوصفها انعكاسات لواقع خارجي "5.وقد بيّن أصحاب هذه المدرسة العلاقة بين اللغة الشعرية واللغة المعيارية والفارق بينهما. فاللغة المعيارية هي اللغة اليومية المعتادة المستخدمة في الكتابات غير الفنية. وهي خاضعة لجملة القواعد الصوتية والصرفية والنحوية المعروفة. غايتها التبليغ والتواصل. أما اللغة الشعرية فهي انحراف عن قواعد اللغة المعيارية وانزياح متكرر لذلك. لهذا يرى أصحاب "حلقة براغ" أن " تحطيم قانون

اللغة المعيارية هو الجوهر الحقيقي للشعر. ولهذا فإنه من الخطأ أن نطلب من لغة الشعر أن تلتزم بهذا القانون. وينبغي ألا يعدّ انحراف اللغة الشعرية عن قانون اللغة المعيارية من قبيل الأخطاء. لأن ذلك يعني رفض الشعر "6. إن الانحراف عن اللغة المعيارية المعتادة من شأنه أن يترك فسحة للمبدع كي يعبر عما عجزت اللغة العادية عن حمله من مقاصد. كما يبرز الجوانب الجمالية والفنية في النصوص الأدبية.

إن النقد من خلال هذه الرؤية يبحث في انحراف اللغة المعيارية المعتادة. وخروجها عن القوانين المتواضع عليها. " التي تتحكم في الاستخدام اليومي والتوصيلي للغة. وهو يعني وجود أبنية وأشكال وأدوات تحوّل اللغة الأدبية إلى نوع من اللغة خاص ومختلف. يتجاوز الإمكانات الوصفية لعلم القواعد "7.

ج- **البنيوية:** حدد "ياكوبسون" مفهوم البنيوية في مجال الدراسات الأدبية بقوله: " من الصعب أن نقع على خيار أنسب من البنيوية. فالعلم المعاصر لا يعالج أية مجموعة من الظواهر التي يتفحصها بوصفها كتلة ميكانيكية. وإنما باعتبارها كلاً بنيويا أو نظاما. تتمثل المهمة الأساسية في الكشف عن قوانينه الداخلية. سواء أكانت سكونية أم تطورية. ويبدو أن المنبه الخارجي لم يعد بؤرة الاهتمامات العلمية. بل الأسس الداخلية للتطور "8. مما يعني فصل النص الأدبي عما يحيط به. ولذلك فصل البنيويون العمل الأدبي عن طرفي التواصل المرسل والمرسل إليه (المبدع والمتلقي). كونهما خارج إطار النص. وركزوا على تحديد

الوظيفة الشعرية للنص الأدبي " لأنها – في رأيهم – تحقق أدبية الرسالة اللغوية "9. مع العلم أن هذه الوظيفة الشعرية لا تلغي بقية الوظائف اللغوية الأخرى. وإنما هي الطاغية عليها في الرسالة الأدبية. وقد استقى النقد هذه التوجهات البنيوية الجديدة من هذا الطرح السابق. وأصبحت المناهج النقدية تدرس الأعمال الأدبية بمعزل عن كل الظواهر الخارجة عن النص بما فيها المبدع والمتلقي. وبذلك تبقى حبيسة بنية النص الأدبي في حد ذاته.

لقد عرف النقد تحوّلا جديدا في ضوء المنهج البنيوي. فقد خرج من المناهج التقليدية التي أضاعت كثيرا من الجهد في تثمين العمل الأدبي. وركزت على الجوانب الخارجية المحيطة به. أما في إطار المنهج البنيوي فقد أصبحت الدراسات النقدية حبيسة النص الأدبي في حد ذاته. وأبعدت العوامل الخارجية له وبخاصة طرفي التواصل (المبدع والمتلقي). وركزت على دراسة الوظيفة الشعرية للنص على حساب بقية الوظائف الأخرى. مما ضيّق من مجال وفسحة النقد لإبراز الجوانب الجمالية والفنية. وكذا إبداعية المؤلف. وقراءات المتلقي.

2- النقد في ظلّ المنهج التداولي :

يعود استخدام مفهوم التداولية إلى الفيلسوف الأمريكي "تشارلز موريس" سنة 1938. واعتبره أحد مكونات السيميائية المؤلفة من ثلاثة علوم هي:

1- **علم التراكيب:** وهو"نحو يدرس علاقة العلامات بعضها ببعض في شكل تركيب صحيح"10.

2- **علم الدلالة:** وهو علم يدرس علاقة العلامات بالأشياء التي تدل عليها. أو تحيل إليها.بمعنى "تحديد العلامات القائمة بين الماهيات اللغوية وبين العالم الخارجي"11.

3- **التداولية:** وهي تدرس علاقة العلامات بمستعمليها المفسرين والمؤولين لمعناها في سياق تواصلي. على اعتبار أن " المعنى يضطرنا في بعض الصيغ اللغوية إلى العودة لدراسة الطريقة التي قام من خلالها المتحدث ببناء الجملة "12. مما يدفع إلى تحديد السياق اللغوي والوحدات المؤثرة في تكوين الجملة. لغاية تحديد مقاصد المتكلم أثناء التواصل. وتمكين المتلقي من فهم وكشف هذه المقاصد.

فالتداولية بهذا التصوّر " مذهب لساني يدرس علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه. وطرق كيفيات استخدام العلامات اللغوية بنجاح. والسياقات والطبقات المقامية المختلفة التي ينجز ضمنها الخطاب. والبحث عن العوامل التي تجعل من الخطاب رسالة تواصلية واضحة وناجحة. والبحث في أسباب الفشل في التواصل باللغات الطبيعية "13. مما جعل التداولية تتجاوز حدود اللسانيات في دراسة البنية اللغوية إلى مجال استعمال هذه البنية اللغوية في العملية التواصلية. المرتبطة بالسياق الدلالي اللغوي والاجتماعي والنفسي لطرفي التواصل.

وهذا التجاوز هو الذي مكّن التداولية من أن تكون نقطة التقاء الكثير من العلوم والمعارف في مجال دراسة اللغة وتفسيرها. فهي" ليست علما لغويا محضا بالمعنى التقليدي"14.

ثم تطورت التداولية لتندمج في اللسانيات. على اعتبار أنها جزء لا يتجزأ منها. وكانت جهود " جون أوستين " و " جون سيريل " فعّالة في بلورة المنهج التداولي من خلال نظرية أفعال الكلام. فقد رأى " أوستين " أن "كل جملة تامة مستعملة تقابل إنجاز عمل لغوي واحد على الأقل. ويميَّز بين ثلاثة أنواع من الأعمال اللغوية: العمل الأول هو العمل القولي. وهو العمل الذي يتحقق ما إن نتلفظ بشيء ما. أما الثاني فهو العمل المتضمن في القول. وأما الثالث فهو عمل التأثير بالقول "15. وهذه الأفعال اللغوية أو الكلامية لا يستطيع المتكلم تأديتها واحدا تلو الآخر. وإنما تمثل هذه الأفعال جوانب مختلفة لفعل كلامي واحد؛ فالعمل القولي (اللفظي) يمثل مجموع ما تشكله مستويات التحليل اللساني: الصوتي. والصرفي. والتركيبي. والدلالي. لأن الأصوات اللغوية تنتظم داخل تركيب نحوي سليم له معنى مقصود وإحالة محددة. وأما الفعل المتضمن في القول (الإنجازي) فهو ما يؤديه العمل اللفظي من معنى إضافي يتضمنه المعنى الأصلي المجرد. وأما العمل التأثيري فيمثل النتيجة التي يتركها العمل الإنجازي في أفكار وعواطف المتلقي.

إن هذا التوسع الذي أوجده المنهج التداولي قد امتدّ إلى دراسة السمات التواصلية للأدب. وأحوال المتكلمين. وأحوال المخاطبين. وسياق الكلام. والفعل الإنجازي المتضمن في

اللغة. وكذا الاستعمالات الحرفية والسياقية لهذه اللغة. مما انعكس على الحقل النقدي. وأعاد توجيه مساره من دراسة البنية اللغوية للنص الأدبي إلى التأكيد على تأثر العمل الأدبي بطرفي التواصل (المبدع والمتلقي). ودور السياق الاجتماعي والثقافي والنفسي في بلورة الأفكار. وهذا ما جعل النقد يخرج من قيود البنيوية إلى فضاء التداولية. ليربط النص الأدبي بمبدعه وأحواله وظروفه. كما يربطه بمتلقيه وبخصائصه. دون إغفال ربط السياق المحيط بهذا النص. " هذا الارتباط الذي يمثل في مجموعه الظاهرة الأدبية بكل علاقاتها المتشابكة والمعقدة. التي لا يمكن تناول جانب واحد منها فقط دون الجوانب الأخرى. لأن معرفتنا بالنص – حينئذ – ستكون ناقصة بل مشوّهة "16. إن الظاهرة الأدبية في ظل التداولية قد أعادت الاعتبار لطرفي التواصل في الأدب (المبدع والمتلقي). وللسياق المحيط بالنص الأدبي. مع العلم أن التداولية تدرس البنية اللغوية اللسانية لهذا النص الأدبي انطلاقا من الاعتبارات السابقة. فأضحى المنهج التداولي يتعمق في بنية النص الأدبي. ويتناوله بصفته موضوعا خارجيا. أو شيئا يفترض وجود فاعل منتج له. ويفترض أيضا وجود علاقة حوارية مع متلق أو مستقبل. مع اختلاف طرق التلقي. وهذا ما انعكس على المشهد النقدي الذي خرج من دائرة الانغلاق في ظل البنيوية إلى الاتساع والانفتاح في ظل التداولية. وأوجد المنهج التداولي مجالا خصبا لمحاولات تحديد إجراءات النقد للنصوص الأدبية. التي تدرس من الداخل ومن الخارج؛ فمن الداخل يرتبط الأمر بالبنية اللغوية وتحديد المستويات اللسانية (الصوتي. والصرفي. والنحوي. والدلالي). أما من خارج النص فيتعلق الأمر بالمبدع وظروف

نتاجه للنص. والعوامل المساعدة في ذلك. والمقاصد التي يرمي إليها. ونوع الرسالة المعتمدة في ذلك. ثم نوعية المتلقي وأحواله. وقدرته على القراءة والتأويل للنص.

خلاصة :

يسعى النقد إلى الكشف عن جوانب النضج الفني في الإنتاج الأدبي. وتميّزها عما سواها عن طريق الشرح والتعليل. ثم إصدار الحكم العام عليها فيما يتعلق بالقيم الفنية والجمالية والاجتماعية الأخلاقية. وللنقد قواعد مأخوذة ومستقاة من دراسة الأدب. تهدف إلى إنجاحه وارتفاع شأنه. وذيوع صيته. وتثمين قيمه. وبقدر اتساع مجال النقد الأدبي بقدر ما يتسع ذلك الهدف. وتتنوّع تلك القواعد النقدية. لتصبح مجالا ثريا وغنيا يعين على فهم الإنتاج الأدبي.

وقد كان للسانيات ومناهجها بالغ الأثر في توسيع وتوجيه حركة النقد الأدبي. التي يمكن رصدها في مراحل مترادفة هي :

1- **مرحلة النقد التقليدي**. وهي مرحلة سابقة لنشأة اللسانيات. وقد كان النقد فيها مركزا على إبراز ما يحيط بالنص وبسياقه الاجتماعي والتاريخي والنفسي.

2- **مرحلة النقد البنيوي**. وقد تزامنت مع تطور اللسانيات البنيوية. وسعى فيها النقد إلى دراسة البنية اللغوية للنص الأدبي بمعزل عما يحيط بهذا النص. مما جعل النقد حبيس هذه البنية.

3- **مرحلة النقد التداولي**. وقد واكبت ظهور وتطور المنهج التداولي. وفيها أحاط النقد بالنص الأدبي من داخله ومن خارجه. فأضحى يربط البنية اللغوية للنص بمبدعه وبمتلقيه. وبسياقه الاجتماعي والثقافي. في صورة متكاملة تبرز ظروف إنتاج هذا النص. ومقاصد مؤلفه منه.

الهوامـــش و المراجـــع

1 - ديفيد ديتشس، مناهج النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق، ترجمة محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، لبنان، 1967، ص 597.

2 - يظهر هذا الأمر في صورة نمطية للنقد عند دراسة حياة المؤلف وأهم مكوناته العلمية والثقافية والبيئة التي نشأ فيها، وكذا الإشارة إلى مناسبة النص وظروف تأليفه.

3 - إنريك أندرسون إمبرت، مناهج النقد الأدبي، ترجمة الطاهر أحمد مكي، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، 1991، ص 12 / 13 .

4 - خوسيه ماريا إيفانكوس، نظرية اللغة الأدبية، ترجمة حامد أبو أحمد، مكتبة غريب، القاهرة، مصر، 1992، ص 47.

5 - تزافيتان تودوروف، الشعرية، ترجمة شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، دار طوبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1990، ط02 ، ص 14.

6 - يان موكاروفسكي، اللغة المعيارية واللغة الشعرية، ترجمة ألفت كمال الروبي، مجلة فصول، القاهرة، مصر، 1984، مجلد05، عدد01، ص43.

7 - خوسيه ماريا إيفانكوس، نظرية اللغة الأدبية، مرجع سابق، ص27.

8 - ليونارد جاكسون، بؤس البنيوية (الأدب والنظرية البنيوية)، ترجمة ثائر ديب، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، 2001، ص 96 / 97 .

9 - رومان ياكبسون، قضايا الشعرية، ترجمة محمد الولي ومبارك حنون، دار طوبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1988، ط01، ص30.

10 - د/ نعمان بوقرة، المدارس اللسانية المعاصرة، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، 2004، ص 168.

11 - المرجع نفسه، ص 169.

12 - المرجع نفسه، ص 169.

13 - مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 2005، ص05.

14 - المرجع نفسه، ص16.

15 - آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 2003، ط01، ص 32/31.

16 - عز الدين إسماعيل، مناهج النقد الأدبي بين المعيارية والوصفية، مجلة فصول، القاهرة، مصر، 1981، مجلد01، عدد يناير، ص20.